

عوامل انحطاط اللغة العلمية -الواقع والمأمول-

Factors of the decline of scientific language - reality and hope-

د/ أسماء عبداوي

الجامعة: الحاج لخضر-باتنة-1-

البريد الإلكتروني: asmaabdaoui1@gmail.com

تاريخ النشر: 2022/01/04	تاريخ القبول: 2022/01/01	تاريخ الإرسال: 2020/01/01
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص:

صعوبة العربية وعدم قدرتها على مواكبة العلم أفكار غرس المستشرقون جذورها في الوطن العربي، واعتنوا بها حتى نمت وعششت في أذهان العرب من ذوي النفوس المغلوبة المولعة بتقليد الغالب، تبناها ودافع عنها أبناء العربية، وامتدت آثارها إلى اليوم لتظهر على مستوى التواصل اليومي مع وسائل الإعلام، والاتصال وخاصة التعليم، ولما اخترقت هذه العوامل أسوار الجامعة وحولتها من حصن منيع بين المتخصصين فيها إلى معول يهدم اللغة وينحط بها إلى أدنى مستوى، صار من الضروري البحث عن أسرع الحلول التي من شأنها أن تعيد للعربية مكانتها.

لتصل الدراسة إلى أن تركيز الجهود على الكفاءة الأدائية (الاستعمال)، بتشجيع مبدأ القراءة والكتابة، هو أحسن سبيل لتحسين استعمال اللغة عند المتخصصين فيها، بدل إضاعة الوقت والجهد في تقديم معلومات عن اللغة.

مقدمة:

لقد كان للغة العربيّة مكانة كبيرة في العصور الماضية، فكم تغنى بها الشعراء في وصف القصور والبكاء عند القبور، ومدح الملوك والأمراء، وهجاء الأعداء، ومنافسة أفحل الشعراء، وهي إلى كل ذلك لغة للعلوم بامتياز، غير أن العربية فقدت مكانتها العلمية في العصر الحديث لعدة عوامل منها ماهو تاريخي ومنها ماهو وليد العصر، يرجع لما سامهت فيه وسائل الإعلام والتواصل والأدب، والمجتمع من ترويج للعامة والأجنبية على حساب الفصحى، وكان التعليم أخطرها ذلك لكونه لم يساهم في توسيع نطاق العربية

وازدهارها بقدر ما ساهم في تراجع مكانتها لدى متكلميها ومتعلميها لمزاحمة اللغة الأجنبية لها، والتدرج نحو العامية شيئاً فشيئاً لسهولة استخدامها وذلك بسبب ضعف مناهج تدريسها وقدم الوسائل التعليمية التي لم تعد اليوم تتماشى مع روح العصر ومتطلباته، وامتدت آثار هذا الضعف لتظهر على مستوى اللغة العربية في التواصل العلمي بين المتخصصين فيها.

ولهذا يسعى البحث لأن يبين كيف ساهمت هذه العوامل في تراجع مكانة العربية، وكيف يمكن تحسين المستوى التواصلية لدى المتخصصين في العربية.

1/ مكانة اللغة العلمية عند العرب وعوامل انحطاطها في العصر الحديث:

1.1 مفهوم اللغة العلمية:

هي " لغة خاصة، لها ألفاظها وجملها وتراكيبها وعباراتها ومعانيها وسياقاتها، على النحو الدقيق الذي يتطلب البناء والتنظيم الموضوعي والمنطقي للبحث"⁽¹⁾

وتتخذ اللغة العلمية شكلاً منظوقاً أو مكتوباً، ويسمى الجزء المكتوب منها كتابة علمية أو كتابة أكاديمية، وعندما ترتبط الكتابة العلمية بتخصص بعينه كالطب أو الهندسة أو الفلسفة أو اللسانيات تصبح اللغة متخصصة.

واللغة الخاصة حسب اتفاق علماء المصطلحية هي " جملة الوسائل اللغوية المستعملة في حقل موضوعي محدد لتأمين الاتصال في هذا الحقل مثل الفيزياء أو لغة الكيمياء أو الطب"⁽²⁾

فتصير بذلك الكتابة العلمية طريقة خاصة في التأليف تختلف عن غيرها من أنواع الكتابات، لها وسائل تعبيرية خاصة، وبنية لغوية متميزة، تلفت الانتباه وتستدعي الدراسة الجادة لما لها من أهمية في مجال البحث العلمي.

والسؤال المطروح هنا: إذا كانت الكتابة العلمية بهذا المستوى من الأهمية والخطورة في مجال البحث العلمي فما واقع اللغة العلمية في مجال البحث لدى العرب من حيث الاستعمال؟

2.1 مكانة اللغة العلمية عند العرب:

لقد كان للغة العربية مكانة كبيرة في العصور الماضية، فكم تغنى بها العرب في وصف القصور والبكاء عند القبور، ومدح الملوك والأمراء، وهجاء الأعداء، ومنافسة أفحل الشعراء وكم نال بها غير العرب العزة، والمكانة السامية، فهذا زياد الأعجم المتوفى سنة (100هـ) لقي مجداً وعلواً لأنه كان متمكناً من العربية

تمكننا تماما، ومثله أبو العطاء السندي (من الهند) نال شهرة وتشجيعة من والي (خرسان) بني أمية نصربن سياتار³.

ولا يقف الأمر على أعاجم الفرس والهند فقط فهذا زنجي تصدى بقصيدته للجريير الذي حقر من شأن الزنج ، تغنى فيها بمدح بني جادته وعدّ أبطالهم وشعراءهم ، حينها سجل لنفسه ذكرا ومكانة في الشعر⁴، هؤلاء وغيرهم كثروا نالوا شرفا ومكانة بعربيتن

وهي إلى ذلك لغة العلوم بامتياز، فقد لبث العربية مطالب حياة العرب الجديدة الدينية والسياسية والفكرية والاجتماعية في العصرين الأموي والعباسي، فاتسعت من الداخل بالتوالد ومن الخارج بالاقتراض. فكان من نتائج ذلك أن العرب "قرؤوا" المعارف العلمية" بلغتهم العربية التي ألفوها وخالطت أفكارهم ومشاعرهم، فحفظوها وتمثلوها تمثلا سليما، ثم دخلوا ميدان البحث والتجريب والتأليف فكان لهم في كل علم سبق وفي كل ميدان جولة."⁽⁵⁾

وفي العصر الحديث تراجعت مكانة اللغة العلمية، وسمعنا عن ادعاءات صعوبة العربية وعجزها عن تأدية أغراضها العلمية، وهي أفكار غرس الاستعمار جذورها في الوطن العربي، واعتنى بها المستشرقون حتى نمت وعششت في أذهان العرب من ذوي النفوس المغلوبة المولعة بتقليد الغالب ، تبناها ودافع عنها أبناء العربية⁽⁶⁾ ، واليوم نجني سمومها فرقة و تشتتا وهوية متماهية في الآخر وقطيعة بينا وبين تراثنا. والأدهى من ذلك أنها انعكست على المردود العلمي لدى الباحثين الأكاديميين بسبب الضعف الذي تشهده اللغة في وسط الاتصال العلمي، فهي:

- 1- لغة إنشائية.
 - 2- متأثرة بالعامية في مفرداتها وتراكيبها ودلالاتها.
 - 3- وجود أخطاء نحوية وصرفية.
 - 4- مختلطة بالخيال غير الهادف، والعاطفة التي تحول دون الموضوعية.
 - 5- الاعتبارية في توظيف المصطلحات.
 - 6- تراكيب ركيكة متأثرة بلغة الصحافة.
 - 7- مصطلحات فضفاضة تنقصها الدقة.
- لاشك أن الواقع الذي تشهده اللغة المتخصصة لم يكن سوى نتيجة لترسبات تاريخية مرت بها لغة المتعلم وصولا إلى المرحلة الجامعية.

3.1 عوامل انحطاط اللغة العلمية في العصر الحديث:

لا شك أن مشاكل استعمال اللغة العربية على هذا النحو من الضعف على المستويين (الاستعمال العادي والتخصصي) اليوم يعود إلى عدة عوامل، قامت في الأساس على العقلية العربية التي ركنت إلى الجمود و استكانت للفشل منذ هجوم التتار، ولعل أهمها:

أ. عوامل تاريخية:

في مطلع العصر الحديث تعالت صرخات تنوعت شعاراتها واتفقت في الهدف وهو القضاء على العربية الفصحى واستبدالها بالعامية، ولكل أسلوبه في الإغراء؛ فمنهم من احتج بصعوبة العربية وتعقيد قواعدها و راح يعد بلغة ميسرة تسهل التواصل وتناسب العصر، ومنهم من سار في قافلة التجديد أو ما أطلق عليه <<حركة تجديد الأدب العربي>>⁷

لا شك أن مشكلة العربية اليوم تعود في الأساس « إلى الوضع الاقتصادي والثقافي والذهني الذي ورثناه في عهد الجمود والانحطاط قبل الغزو الأوربي »⁸ وهو ضعف أصاب كثيرا من المجالات بما فيها الأدب الذي انحط مستواه وفرغ من محتواه. وهي نكسة منحت الاستعمار الأوربي فرصة ذهبية ليضم العرب تحت جناحه، حيث اعتقد العدو أن الفريسة باتت سهلة ليفتس بها وإذا بشبح العربية يطارده من جديد، فوجود العربية يبقى يشكل خطرا مهما كان مستوى هذه اللغة، خاصة وأنها تعد الحبل المتين الذي يجمع الأمة العربية الإسلامية على الكلمة الواحدة، ولهذا أصبح القضاء عليها في مقدمة أولويات الخطط الاستعمارية للاحتلال.

ولهذا كانت العربية هي هدف المستعمر ولغته طبعاً البديل ، يقول " عثمان سعدي " رئيس الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية >> كانت العامية قبل الاستقلال راقية مشوهة قريبه جدا من الفصحى ، ولم يتسرب لها التشويه إلا في عهد الاستقلال بحيث صارت للحجة مسخا خليطا من الكلمات العربية والفرنسية ، سماها اللوبي الفرنكفوني المتحكم في الدولة الجزائرية (العربية الجزائرية) و طالب بترسيمها بدل الفصحى <<⁹

اعتقد الكثير أن الاستعمار ذهب ولم يعد لكنه في الحقيقة عاد بقناع جديد ليؤدي به دور خدمة البحث العلمي، أطلق عليه المؤرخون قناع الاستشراق، سعى المستشرقون إلى إقناع العرب بأن سبب تخلفهم عن الاختراع هو أنهم يؤلفون ويكتبون بالعربية الفصحى، والتأليف بالعامية يعين على الابتكار، وراحوا يضربون أمثلة بالشعوب اللاتينية، فالإنجليز لم يقدروا على الاختراع لأنهم كانوا يفكرون باللسان اللاتيني، وما أعانهم على الاختراع هو تخلفهم عن اللغة اللاتينية واتخاذهم الإنجليزية أداة للتفكير.

يعد المستشرق الألماني وليم سبيتا أول من حمل لواء الدعوة إلى العامية من خلال كتابه (قواعد العربية العامية في مصر) سنة 1880، وكانت فكرة هذا المستشرق واضحة من البداية، وهي القضاء على الفصحى، واستبدالها بالعامية واتخاذها لغة أدبية ، وهو ما صرح به في خاتمة مقدمته¹⁰ ، وتبنى الفكرة بعده كارل فورلس : صاحب كتاب " اللهجة العربية الحديثة في مصر عام 1990 الذي ترددت فيه أصداء آراء (سبيتا)،

والانجليزي (سلدن ولمور) في كتابه " العربية المحكية في مصر"، في سنة 1901، الذي أخذ يحذر فيه من احتلال اللغة الأجنبية محل اللغتين العربية الفصحى والعامية، إذا لم تأخذ العامية لغة العلم، أما (وليم ولكوكس)، فرأى أن التقدم والابتكار يقتضي أن نفكر ونتكلم بنفس اللغة ولهذا لابد من تعميم التعليم بالعامية، وذلك من خلال رسالة نشرها عام 1926 بعنوان: "سوريا ومصر وشمال إفريقيا ومالطة تتكلم البونية لا العربية"¹¹.

لقيت هذه الدعوة صداها عند العرب، فتداولتها أقلام عربية كثيرة أولها (مجلة المقتطف) عام 1881 مقترحة كتابة العلوم بلغة الحديث دون أن تشير إلى تأثيرها بزعم هذه الدعوة (سبيتا)¹² ودافع عنها باحثون عرب في مؤلفاتهم أمثال سلامه موسى هذا الرجل الذي ورث معول الهدم من أصحابه المستشرقين وأخذ يطعن في العربية، يشتكي من صعوبتها ويدعوا إلى التسوية بين العامية والفصحى حتى يعبد الطريق لاستفراد العامية بساحة البحث، وذلك من خلال كتابه: (البلاغة المعاصرة و اللغة العربية) الذي طبع لأول مرة عام 1945 م، حيث قال في مقدمة هذا الكتاب: « وقد مست بعض الإصلاحات المقترحة ، مثل إلغاء الإعراب ، واتحاد الخط اللاتيني ، وأكثر من المقارنات بين لغتنا واللغة الانجليزية لكي أبرز للقارئ عيوب لغتنا وإرهاقها للمتعلمين بقواعد وتقاليد لم تعد لها فائدة »¹³ وترجع أهم هذه العيوب -حسب رأيه- إلى⁽¹⁴⁾: صعوبة تعلم العربية وعجزها عن تأدية أغراضها الأدبية والعلمية، وأنها تبعثر وطنية المصريين وتجعلها شائعة في القومية العربية.

كما لا ينفك (أنيس فريحة) كآساتذته من المستشرقين وأصحابه من العرب الداعين إلى العامية من ترديد أسطوانة صعوبة العربية وعجزها عن اللحاق بالعلم والفنون¹⁵. فالازدواجية اللغوية التي شغلت بال أنيس فريحة ورأى أنها تعرقل الفكر والإنتاج الفني والعلمي حلها بالانتقال إلى لغة « بدأت ملامحها تظهر في المحاضرة وفي قاعات الدرس وفي الإذاعات هي لغة وسط لا بالمتقنة المثقلة بالأحكام ولا هي باللهجة الإقليمية المبتذلة »¹⁶، معنى ذلك أن الحل عند أنيس فريحة يكون بالتدرج إلى العامية.

ومما يحتج به (أنيس فريحة) في دعوته إلى العامية، فكرة أنها تفسح المجال للسب والشتم والشجار والغناء والرقص والتحايل على كسب العيش ، فيقول في موضع: « اللغة للغناء والرقص ، والبكاء والمشاجرات ، وتصريف الشؤون والتحايل على كسب العيش، وفي ظروف كهذه يتحلل المرء من قيود اللغة ويتكلم على هواه ، فمثلا لا يمكن لرجلين بأن يتشامتا وأن يتسابا بلغة فصيحة معربة »¹⁷

ويقول في موضع آخر من نفس الكتاب :

« ولكن اللغة وليدة النفس والعاطفة كما هي وليد الفكر، عندما نغني ونلعن وتشتم و نتعجب وندهش ونتأوه حسرة ...»¹⁸

لعل السب والشتم والمستوى المتدني من الأخلاق هو ما ستفقدنا إليه العامية حتما لأنها لغة السوق وسيلة الانحطاط، إذا كان هذا هو المجتمع الذي نطمح لبنائه والذي سنترك أبنائنا في عهده ، فلنتفق جميعا على أن نتبنى العامية كوسيلة تواصل .

وإذا كانت الدعوة إلى العامية تقضي على الجانب المنطوق من الفصحى، فإن الكتابة بالعربية تضمن استمرارها لهذا قررّ دعاة العامية استبدال الحروف العربية باللاتينية ، وكان رائد هذه الفكرة بطبيعة الحال (ولهم سبيتا).

وتبنى هذه الدعوة من العرب: عبد العزيز فهي أحد شيوخ مجمع اللغة العربية الذي تأسف لعدم احتلال العامية مكان الفصحى، واقترح إبدال الحروف العربية باللاتينية¹⁹، و تبعه في دعوته تلك سلامة موسى²⁰ و انيس فريحة²¹ وغيرهم ك(إبراهيم حمودي الملا) و(عثمان صبري) و(الجنيد خليفة) و(سعيد عقل)²²...

اقتداء بمنهج أستاذهم وليم سبيتا الذي سعى إلى محاربة الكتابة العربية، قائلا: <<وطريقة الكتابة العقيمة، أي بحروف الهجاء المعقدة، يقع عليها بالطبع أكبر قسط من اللوم في كل هذا[...]. بالتزام الكتابة العربية الكلاسيكية القديمة لا يمكن أن ينمو أدب حقيقي ويتطور >>²³

ب. عوامل ولادة العصر:

لقد هدأت عاصفة الدعوة فترة من الزمن ، لما تلقاه دعاة العامية من ردود فعل قوية من قبل الغيورين على العربية من مؤلفين وشعراء ، أمثال حافظ ابراهيم الذي ألف أشهر قصيدة في مدح العربية وبيان فضلها بعنوان (العربية تنعي حظها)، و كتب محمد محمود شاعر (أباطيل وأسمار) وهو مؤلف ردّ فيه على جميع الادعاءات والتهم الملفقة للعربية، وقبله ألفت نفوسة زكريا (تاريخ الدعوة إلى العامية في مصر وأثارها). ولكن سرعان ما ظهرت عوامل أخرى تهدد مكانة اللغة العربية في الفترة المعاصرة ، وهي عوامل ولادة العصر ومتطلباته، ارتبطت بحال اللغة العربية في التواصل اليومي أي في وسائل الإعلام، والاتصال والتعليم الذي يعد أخطر هذه العوامل.

• دور الإعلام

ما زالت العربية في خطر مادامت الفضائيات والأفلام الكرتونية للأطفال والإعلانات و الصحف والجرائد والمجلات تمارس دورها السلبي في تراجع مكانتها عن طريق الإعلاء من شأن العامية والأجنبية على حساب العربية. ومادامت الحصص الثقافية والعلمية والاجتماعية والسياسية وحتى التعليمية وغيرها من الحصص التلفزيونية لا تخلوا من استعمال العامية، أين أصبحت العامية تأخذ حصة الأسد من برامج التلفزيون، ولأن المستوى لا يسير إلا نحو الرداءة تجد حتى المسلسلات والأفلام التي كانت تترجم قديما بالفصحى أخذت اليوم العاميات مكانها، وقد يترجم المسلسل الواحد إلى أكثر من لهجة .

الأمر الذي ينطبق حتى على الأفلام والرسوم المتحركة التي كانت ذات دور جد إيجابي في اتصال الطفل بالفصحى و حبه لها، وامتلاكه رصيда لغويا معتبرا قبل دخوله المدرسة.

• أما المسرح كإنتاج اشتغل على ترويجه التلفاز كثيرا فلم يعد دوره التسويق للعامية فحسب، بل التطاول على العربية الفصحى أيضا، إذ نجده اليوم يرمي إلى تحقير قيمتها ومكانتها عند متكلميها، كأن تُكَلَّف الشخصية التي تلعب دور الإنسان الكلاسيكي ذي الفكر الرجعي، أو صاحب اللحية ممن لا تنطبق أفعاله مع أقواله بالحديث بعربية فصيحة، ويكون طبعا محور سخرية وتهكم من قبل شخصيات أخرى، أو أن تتحدث شخصية ما بالعربية مع تفخيم الأصوات بحيث يحدث لها دويّ مزعج ينقّر من الفصحى، ويصورها على أنها لغة بدوية قديمة .

• في حين لا تكاد تخلو الإعلانات من العامية والرتانة بحجة الترويج للمنتج، حتى يتم استقطاب أكبر قدر ممكن من الزبائن عن طريق التأثير فيهم بهذا الخليط والذي نستحي أن نسمّيه لغة . وما يقال على وسائل الإعلام المرئية يقال عن المكتوبة أيضا من الصحف والمجلات وإعلانات الشوارع (اللافئات الإشهارية) والتي لا تسلم كلها من أسلوب العامية ، فضلا عما كتب عن لغة الصحافة المكتوبة التي امتلأت أخطاء لغوية فادحة أفسدت ألسنة العرب.

• دور وسائل الاتصال الحديثة:

إذا كان الخطر قد رافقنا إلى البيوت عن طريق التلفاز، هذا العالم الذي حاصر أذواق المتفرجين في مكان واحد داخل البيت، فإن شبكة التواصل الحديثة من الفيسبوك والتويتر والإنستغرام ورسائل الهاتف أصبحت اليوم عالمنا، ترافقنا في البيوت ووسائل النقل والشوارع والمقاهي وفي كل مكان في العالم، والتي أضحت اليوم أكثر سلاح فتاك يهدد مستقبل العربية.

وإذا أخذنا الجزائر كنموذج، فقد وضعتنا الإحصائيات أمام واقع مزرٍ للعربية في الوطن، إذ أثبتت أن الوسيلة الأولى للتواصل بين الشباب هي ذلك المزيج من اللغة العربية واللهجة المحلية واللغات الأجنبية وذلك بنسبة 43.26 % وتأتي في المرتبة الثانية اللهجة المحلية (العامية) بنسبة 33.70 % تليها في المرتبة الأخيرة اللغة العربية الفصحى بنسبة 23.04 %²⁴

وهي إحصائيات تؤكد أن العربية في خطر، فضلا عما لها من نتائج سلبية، حيث يساعد العرب بعضهم البعض على التخلي عن العربية شيئا فشيئا والتهيه في العامية.

وتهدد وسائل التواصل، كذلك مستقبل الكتابة العربية إذ لم يكف هؤلاء الاستكانة لذلك الخليط من اللغات واللهجات، بل تخيروا اللاتينية كوسيلة بينهم.

ولأن اللاتينية لا تستوعب جميع أصوات العربية لفقّرها، لجئوا إلى ابتكار بعض الرموز الغريبة عن العربية واللاتينية مستمدة من الأرقام ، وتمثل الحروف التالية :

ح	أ	خ	ق
7	2	5	9

• مكانة اللغة العربية في فضاء التعليم:

تواجه تعليمية اللغة العربية في مراحل ما قبل الجامعة نوعين من المشاكل، أحدهما مشكل داخلي ينبع من ضعف مناهج تعليم اللغة العربية، ومن جمود وقدم وسائلها، والآخر مشكل خارجي تمثل في مزاحمة اللغة الأجنبية للغة العربية في جميع مراحل التعليم، وهي المشاكل التي هيئت لضعف مستوى التواصل العلمي باللغة العربية في مراحل التعليم العالي.

يتعلق الأمر بمزاحمة أكثر من لغة واحدة للغة العربية في جميع مراحل التعليم حين تجد الأجنبية تلازم العربية من الابتدائي إلى الثانوي، ويبقى التلميذ المغلوب على أمره وحيدا في حلبة التعليم بين العامية و الفصحى والانجليزية والفرنسية... وغيرها من اللغات.

في حين يثبت المتخصصون في تعليمية اللغات و حتى المتخصصون في اللسانيات الحديثة ومن بينهم تشومكي الذي توصل إلى نتائج مفادها أن المتعلم لا يستطيع اكتساب نظام لغة جديدة إذا لم يتمكن من نظام لغته الأم، من حيث جميع مستوياتها ومن حيث استعمالها في جميع السياقات ، وأن تعليم اللغتين في آن واحد أو في فترات متقاربة بحيث لم يتمكن المتعلم من اكتساب لغته الأم، يؤدي إلى اختلاط النظامين على المتعلم وعدم تمكنه من أي لغة من اللغتين ، وهي نظرية أثبتها الواقع.

فقد توصل الغرب إلى أن الخطر الذي يهدد المجتمع هو تعليم لغة ثانية قبل التمكن من اللغة الأولى وأطلقوا عليه مصطلح " الطاعون الاجتماعي"، فدخول اللغة الثانية في التعليم قبل التمكن من اللغة الأم واستعمال المعلم للعامية داخل الفصل أكبر طاعون ينتقل للتلاميذ عن طريق العدوى إلى باقي أفراد المجتمع وفئاته، ولا شك أن تبعات هذه المشكلة تظهر بجلاء على مستوى لغة المتخصصين في المرحلة الجامعية.

ومزاحمة العامية للغة العربية لا تقتصر على مستوى الاستعمال فحسب وانتشارها على لسان المتعلمين والمعلمين على حد سواء، بل يتجاوز الأمر ليصير قرارا صريحا تتداوله، تداولته وسائل الإعلام سنة 2015، واختلفت حوله الآراء بين القبول والرفض.

لقد وجدنا أحد الباحثين الجزائريين المقيمين في فرنسا يدعم هذا القرار بقوة في مقال له كتبه بالفرنسية بعنوان: (ARABE ALG RIEN OU ARABE ELFOSH , LA GUERRE DES LANQUES N AURA PAS LIEU)

(للهجة الجزائرية أو العربية الفصحى، المنافسة بين اللغات ليس لها مكان)

يقول أحمد تسة في هذا المقال: « يجدر بنا جعل الطفل الجزائري قادرا على الانتقال بسهولة من لغة

الكلام إلى لغة الكتابة »⁽²⁵⁾

ووسيلة الانتقال حسب رأيه الذي أيد به هذا القرار هي تدريس الطفل بالعامية في السنوات الأولى من بداية مشواره الدراسي، وإلا سيجد التلميذ صعوبات من أجل التمكن من لغة التعليم والتوجه نحو مواد تعليمية أخرى مثل: الرياضيات، الفيزياء، التاريخ... لأن لغة الكتابة غريبة عن عالم الطفل واتصاله باللغة المكتوبة مباشرة سيخنق قدراته الإبداعية ويقطع دافعه الطبيعي نحو الأنشطة المعرفية ويخدر ذكائه في فجر التنوير له. ويرى أن هذه العملية هي سبب الفشل المدرسي.⁽²⁶⁾

كل هذه المشاكل التي تخص تعليمية اللغة في مراحل التعليم ما قبل الجامعة تمتد لتؤثر على لغة الباحثين العلميين في مرحلة التعليم التي حصرت العربية في زاوية التخصص، فلا يتحدث بها إلا أصحاب الأدب العربي أحيانا وباحتشام شديد داخل الفصل.

أما باقي التخصصات فهي تفضل الأجنبية في التواصل العلمي اللغات الأجنبية كالطب، الفيزياء الهندسة والرياضيات ... مع أن التجربة السورية أكدت نجاح تعليم العلوم باللغة العربية الفصحى.

وتزداد الأمور تعقيدا لدى المتخصصين في اللغة العربية ففي غالب الأحيان إما تجد الطالب يتحدث بعربية لا تمت للفصحى بصلة، مطبوعة بأسلوب العامية، مليئة بالأخطاء الصوتية، والصرفية، والنحوية، كثيرا ما يتخفى الطالب وراء قاعدة "سكن تسلم" حتى لا يضطر للإعراب، أو نجده يتفاعل ويشارك بعامية سوقية بمستوى لا يمت للحضارة بصلة، أما باقي الطلبة فيختبئون وراء عباءة الصمت ويحرمون أنفسهم من المشاركة والحوار مع الطلبة والأساتذة داخل الحجرات خوفا من أن تعض العربية ألسنتهم إذا ما نطقوا بها، أما خارج الحجرات فالواقع مليء بالخزي والمهانة، فطالب الأدب لا يجراً على البوح بالتخصص الذي ينتهي إليه، وإذا أُخرج بالسؤال اختبأ وراء مصطلح أجنبي يدل على تخصصه "LETTRE أو LINQUISTIQUE" في حين نجد طلبة الفرنسية والانجليزية يمارسونها بكل فخر داخل حجرات الدراسة وخارجها.

والمسؤولية لا تقع على عاتق الطالب فقط، حيث نجد العامية تتسرب حتى على لسان أساتذة الأدب العربي في الجامعات. أما الأيام الدراسية التي تقام في كلية اللغة والأدب العربي، خاصة التي تعالج مواضيع خطيرة: كواقع العربية ومستقبلها، فلا تتجاوز قراراتها تاريخ إقامتها، ولا يستفاد منها في الجانب التطبيقي.

2/ نحو تحسين الواقع الاستعمالي للغة العربية في الحياة الجامعية:

ومع كل هذه المشاكل التي تعانيها اللغة العربية في الاستعمال اليومي مما ينعكس على الاستعمال التخصصي لها لم تتحرك مناهج التعليم خطوة للأمام نحو تطوير وسائل التعليم التي لاتزال إلى يومنا هذا تقليدية ومستهلكة للوقت والجهد وباعثة للملل في نفس متعلم القرن الواحد والعشرين، ولهذا يميل المتعلم وحتى المعلم لاستخدام العامية بدلها في الفصل.

وفي المقابل تكاد تنعدم الاجتهادات التي تسعى للنهوض بمستوى اللغة العلمية في مراحل الجامعة، من مقاييس خاصة بتدريسها، أو أيام دراسية وملتقيات علمية، أو بحوث أكاديمية جادة تسعى لتحسين واقع الاستعمال للغة العربية في الأوساط العلمية.

ولعل أهم حل يقترحه البحث لتحسين الواقع الاستعمالي للغة العربية في التخصصات العلمية ومن ثم تحسين مردودية البحث العلمي لا يقوم على اقتراح تنظيري بقدر ما هو اقتراح ميداني تطبيقي، إذ يكفي وضع اللغة في الاستعمال اليومي بدل تضيق الوقت والجهد في اقتراح نظريات لغوية جديدة في كل مرة يثبت فيها المتعلمون صعوبة الأنحاء التقليدية.

فبالرغم من قيمة البحث اللغوي القديم، بما فيها النحو الذي نال إعجاب العديد من الباحثين الغرب المنصفين فهو على رأي أحد المستشرقين: «أثر رائع من آثار العقل العربي، بما له من دقة في الملاحظة، ومن نشاط في جمع ما تفرق. وهو أثر عظيم يرغم الناظر فيه على تقديره ويحق للعرب أن يفخروا به»⁽²⁷⁾ بالرغم من ذلك بقيت سهام النقد تتجه صوب نحو العربية، وبقي مبعث تدمير الكثيرين من صعوبة اللغة، ورغم محاولات تيسيره على المتعلمين مع العديد من الباحثين العرب المحدثين، بقي الأمر كما كان عليه، ولم يزل نحو العربية عائقا أمام متعلمي العربية إلى يومنا هذا، بل إن الأمور تتطور إلى الأسوأ بسبب الأخطاء التي يمارسها المتخصصون أنفسهم على مستوى الاستعمال العادي ويمتد إلى مستوى الاستعمال العلمي مما يظهر على سطح لغة البحوث العلمية الأكاديمية. لا شك إذا أن الحل لا يقتضي إعادة النظر في

المستوى النظري للبحث اللغوي العربية كما ذهب إلى ذلك الباحثون المحدثون مما انعكس على عناوين مؤلفاتهم (تجديد النحو – إحياء النحو – تيسير النحو – النحو العربي نقد وتوجيه ...)، مما يظهر أن محور الذي تدور حوله محاولات الإصلاح كان المادة، وحتى توجيه المحاولات نحو الطريقة يبقى غير مجد إذا كان الهدف هو تحسين مستوى اللغة المتخصصة، لفئة الجامعة وهي فئة يفترض أن تكون متخصصة، وتيسير الطريقة ليس سوى سبيلا لمخاطبة ذهن المتعلم في مستويات ما قبل الجامعة وفق خطة محكمة تقتضي التدرج مع مراعاة الكم والكيف، مما يقتضي مراحل زمنية معينة لتعلم اللغة الهدف.

فلا حاجة بذلك لا إلى تيسير المادة ولا إلى تيسير طريقة تعليم المادة، لأن المشكلة لم تعد تتعلق بملكة اللغة لأن الباحث المتخصص في المرحلة الجامعية يفترض أنه اكتسب معلومات عن اللغة، وعلى هذا ينبغي توجيه الجهود نحو الكفاءة الأدائية أي نحو الاستعمال، وعلى هذا فإن معالجة مشكلة اللغة لدى المتخصصين فيها يقتضي تشجيع الاستعمال، ولا شك أن هذه المشكلة ليست جديدة عند العرب، بل تمتد جذورها إلى عصور سابقة، ويضعنا ابن خلدون أمام هذه الصورة حينما يقول: «ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده خطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي، وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفين من المنظوم والمنثور وهو لا يحس إعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ولا شيئا من قوانين صناعة العربية»⁽²⁸⁾

فالقضية ليست قضية صناعة بقدر ماهي قضية استعمال لهذه الصناعة، ولذلك وجدنا العرب قديما تتحدث عربية فصيحة بطلاقة، وهي لا تعرف الفرق بين الفاعل والمفعول وفي المقابل وجدنا من النحاة من يحسن كل القوانين ويلحن في الاستعمال، ولهذا فإن أفضل علاج لهذه المشكلة يحصل بوضع هذه اللغة في ما وضعت له وهو الاستعمال، وبالتالي تصير عملية اكتساب اللغة سهلة ولا تكلف المتكلم سوى المحاكاة والتكرار، بدل التعامل مع القواعد المجردة مما يستدعي استحضار الذهن من أجل فهمها وحفظها معزولة عن السياقات مما يحتاج إلى كثير من الوقت والجهد، ألا ترى أن تعلم سياقة السيارة عن طريق المحاكاة والتكرار أسهل بكثير من تعلم قوانين القيادة، فقد تجد سائق سيارة يقود بمهارة دون أن يعرف أو يقرأ عن كيفية السياقة وقانونها، وفي هذا السياق يقول ابن خلدون: "والمملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالاً" ²⁹

. لا شك أن استعمال اللغة بناء على المحاكاة والتكرار أفضل وسيلة للتحسين من مستوى اللغة العربية لدى المتخصصين، وهي الطريقة التي ستبطل الادعاءات التي خلفها بعض المستشرقين والباحثين العرب مما شاع حول صعوبة العربية، إذ لم تعد بعد الآن لغة سهلة وأخرى صعبة، بل توجد لغة مستعملة وأخرى غير مستعملة، وتحسين مستوى العربية لم يعد يقتضي سوى ممارستها واستعمالها في الواقع اليومي. وإذا تساءلت: لماذا لم يشتك العرب القدامى من صعوبة العربية في حد ذاتها؟ فإن الجواب: لأنهم يستعملونها. وإذا قلت: لماذا لم يشتك الصينيون من صعوبة الصينية رغم قدمها وكثرة رموزها؟ فإن الجواب لا يختلف أيضاً وهو: لأنها مستعملة.

ومن الأسباب التي أدت أيضاً إلى العزوف عن استعمال العربية لدى المتخصصين فيها مما يعد امتداداً لمرحلة الدعوة إلى العامية؛ ما شاع عن الفصحى بأنها لا تواكب العلم والمعرفة فتجدهم يعبرون إما بالأجنبية أو بالعامية عن المنتوجات العلمية الجديدة في الاستعمال العادي، ويتطور الأمر إلى مستوى الاستعمال التخصصي العلمي فيعبرون عن بعض مدلولات التخصص بمصطلحات أجنبية، كاستخدام مصطلح: (Linguistique -linguistique -ALOPHON -DIDACTIQUE- ...)، وبدل أن يعمل الطالب المتخصص على تحسين مستوى العربية على الصعيدين: (الاستعمال العادي والمتخصص)، يسيء بنفسه إلى لغته العربية، لكن أليست العربية هي نفسها اللغة التي بنت حضارة قامت على أنقاضها الحضارات الأوروبية نفسها، كما أن الذنب ليس ذنب العربية التي قال فيها (حافظ إبراهيم)

أنا البحر في أحشائه الدرُّ كامن فهل سلوا الغواص عن صدفاتي

وإن كان الاستعمال أهم الحلول التي ترقى بلغة الباحث أو الطالب في مجال البحث العلمي، فإن ذلك لا يعني أن المسألة تقع كلها على عاتق الطالب، لأنه يبقى بحاجة إلى ذوي الخبرة في انتقاء نموذج اللغة المراد اكتسابها بالمحاكاة والتكرار، الذي يقتضي هنا القراءة والكتابة المستمرين، ووضع خطة معينة لتقديم اللغة النموذجية العلمية وفق منهج يراعى فيه التدرج.

وإذا كان توسيع استعمال اللغة عن طريق كثرة القراءة والكتابة في الجامعة أهم علاج بإمكانه أن يرقى بمستوى اللغة العلمية، فإن هذا العلاج كلما كان مبكرا أي في المراحل التعليمية الأولى كلما اكتسب المتعلم مناعة ضد ما سيقع فيه في مرحلة التخصص من أخطاء في استعمال اللغة أو من هجر لهذه اللغة وتجنب لاستعمالها، وعلى هذا ينبغي إلى جانب معالجة هذه الإشكالية في المرحلة الجامعية، تحصين المتعلم قبلها في مراحل ما قبل الجامعة، وبدل التدرُّج نحو العامية استجابة للتيار الدعوة إلى العامية، واستكانة لواقع العربية في وسائل الإعلام ووسائل الاتصال والمجتمع غير اتجاه القطار نحو وجهة عكسية أي نحو الفصحى، وذلك بتقريب الفصحى من الطفل، دون ممارسة أي إجبار عليه، بل سنجعله يلعب بالعربية، يغني بها، يأكل ويشرب وينام بها.

والمسؤولية هنا لا تقع على عاتق الأسرة والمجتمع فحسب بل حتى على الإعلام أيضا، الذي حان الوقت كي يمارس الدور الإيجابي، بدل ما يقوم به من ترويج للعامية والأجنبية في الإعلانات والحوارات وأخص بالذكر هنا الرسوم المتحركة التي لها دور كبير في تعويد الطفل على ممارسة الفصحى بسهولة، ومن الضروري كذلك أن نطبع ألعاب الطفل بالفصحى، والتركيز هنا على الجانب المسموع لأن السمع " أبو الملكات " كما يقول ابن خلدون في مقدمته، فهو أول أداة تعمل لدى الإنسان منذ الحمل، والسمع أول نافذة تفتح من الحواس لدخول اللغة، عن طريقه تدخل جملة من المفردات والتراكيب، فتكوّن له رصيда لغويا، مجموع هذه المدخلات تأسس للمخرجات، أي أن الطفل كلما كان مستمعا جيدا كان من الضروري متحدثا جيدا. فضلا عن ضرورة إجبار المعلمين على ممارسة الفصحى وتنقيتها من العامية والرتانة. أما اللغة الثانية فلا ضرورة لإشغال ذهن المتعلم بها في المراحل الأولى قبل التمكن من نظام الفصحى تمكنا تاما يسهّل عليه تعلم نظام اللغة الجديد.

لقد توصل البحث مما سبق إلى مجموعة من النتائج نجملها فيما يلي:

- أصّل لمشاكل ضعف المستوى الاستعمالي للغة العربية في المرحلة الجامعية عوامل منها ما يعود للتاريخ ومنها ما هو وليد العصر.
- الدعوة إلى العامية أخطر عامل تاريخي أصّل لمشكلة العربية، تمثلت أهم مبررات الدعوة في:
 - صعوبة تعلم العربية.
 - عجزها عن تأدية أغراضها الأدبية والعلمية.
- وهي مبررات واهية إذ لا توجد لغة صعبة و أخرى سهلة، بل توجد لغة مستعملة وأخرى غير مستعملة، والعربية المهمة بالعجز هي نفسها التي بنت حضارة قامت على أنقاضها الحضارات الأوروبية.

- ذهاب الدعوة لا يعني انتهاء مرحلة الخطر لأن العامية بقيت تهدد مكانة العربية في التواصل اليومي على مستوى وسائل الإعلام والاتصال وامتدت إلى التعليم...
- يتحمل التعليم المسؤولية الأكبر في استفحال ليس العامية فحسب بل وحتى الأجنبية.
- وامتدت آثار هذا الضعف لتظهر على مستوى اللغة العربية في التواصل العلمي بين المختصين فيها.
- تحولت الجامعة على يد المتخصصين في العربية من حصن منيع للعربية إلى معول يهدمها وينحط بها إلى مستوى العامية من جديد .
- تحسين مستوى استعمال اللغة لدى المتخصصين فيها يقتضي تركيز الجهود على الكفاءة الأدائية (الاستعمال)، بتشجيع مبدأ القراءة والكتابة، بدل إضاعة الوقت والجهد في تقديم معلومات عن اللغة.

(1) سعد بن علي الشهراني، الكتابة الأكاديمية، خصائصها ومتطلباتها اللغوية، بحث منشور في جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، ص5.

(2) عبد الرحمان حسن العارف، تمام حسان رائدا لغويا، عالم الكتب، القاهرة، 2002م، ط1، ص294.

(3) يوهان فيك، العربية دراسات في اللغة و اللهجات و الأساليب، تر: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1980م، ص ص 43، 44

(4) المرجع نفسه، ص45

(5) المرجع نفسه، ص39

(6) لقيت هذه الدعوة صداها عند العرب، وتداولتها أقلام عربية كثيرة، في مقدمتها: مجلة المقتطف سنة 1881م، ثم سلامة موسى وأنيس فريجة ، إبراهيم حمودي، عثمان صبري، سعيد عقيل ... (ينظر، البلاغة العصرية، ص11، واللهجات وأسلوب دراستها ص ص 97-109، ومحمد الصاوي، كتابة العربية بالحروف اللاتينية، ص136)

(7) نفوسة زكريا سعيد، تاريخ الدعوة الى العامية و اثارها في مصر، دار نشر الثقافة، الإسكندرية، مصر، 1964م، ط1، ص 146

- (8) عبد الرحمان الحاج صالح، أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي للغة العربية، مجلة اللسانيات، جامعة الجزائر، ع4، 1973م، ص18
- (9) عثمان سعدي ، اللغة العربية و اللهجات المتفرعة عنها ، مقارنة بين عامية الجزائر قبل الاستعمار و بعده ، أعمال الندوة الدولية التي نظمت بالتعاون مع وزارة الثقافة ضمن فعاليات الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007، الفصحى و العامية ، لغة التخاطب بين التقريب و التهذيب، المجلس الأعلى للغة العربية، يومي 04-05 يونيو 2007 ، ص 111.
- (10) نفوسة زكريا سعيد ، تاريخ الدعوة إلى العامية و أثارها في مصر ، ص 21
- (11) نفوسة زكريا سعيد ، تاريخ الدعوة إلى العامية و أثارها في مصر، ص ص 17-42، محمود محمد شاكر أبو فهر، أباطيل و أسمار ، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 2005م، ط3، ص 132 – 133
- (12) غانم قدور الحمد، أبحاث في العربية الفصحى، دار الجبل، دار عمار، عمان، 2005م، ط1، ص 191-192
- (13) سلامة موسى، البلاغة العصرية و اللغة العربية، مؤسسة هنداوي، القاهرة، مصر، 2012م، ط1، ص 11
- (14) نفوسة زكريا سعيد ، تاريخ الدعوة إلى العامية و أثارها في مصر ، ص ص 119-120
- (15) أنيس فريحة، اللهجات وأسلوب دراستها، ص 23 والنظريات في اللغة، ص 111
- (16) أنيس فريحة، النظريات في اللغة ص 113
- (17) المرجع نفسه، ص 108
- (18) المرجع نفسه، ص 124
- (19) نفوسة زكريا سعيد ، تاريخ الدعوة إلى العامية و أثارها في مصر، ص ص 144-146
- (20) سلامى موسى، البلاغة العصرية ص 139
- (21) أنيس فريحة، اللهجات و أسلوب دراستها ص 23
- (22) ينظر: محمد الصاوي ، كتابة العربية بالحروف اللاتينية، MAKTABAH.COM ص 136
- (23) محمود محمد شاكر، أباطيل و أسمار، ص 132 – 133
- (24) محمد الفاتح حمدي ، واقع اللغة العربية في ظل استخدام وسائل الاتصال والاعلام الحديثة في نظر الشباب الجامعي الجزائري ، ص 383.
- (25) (AHMED TASSA , ARABE ALGE RIEN OU ARABE ELFOSHER , IA GUERRE)

DES LANQUES N AURA PAS LIEU , LIBERTE , COM , 04/07/2015

(26) المرجع نفسه

(27) المصدر نفسه، ص773.

(28) عبد الرحمن بن محمد خلدون، ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (مقدمة ابن خلدون)، تح: درويش جودي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2002م، دط، ص764

(AHMED TASSA , ARABE ALGE RIEN OU ARABE ELFOSHER , IA GUERRE DES LANQUES N AURA PAS LIEU , LIBERTE , COM , 04/07/2015